معركـــة الإرادة الوطنيـــة

لأول مـــرة التفاصيـــل الكاملـــة للمخطـــط الســـري للعـــدوان الثلاثـــي لإبـــادة مصـــر

صعد عبدالناصر منبر الأزهر وقال: ســـنقاتل فانفجر بركان إرادة المقاومة المصرية

في تاريخ كل الأمم والشـــعوب لا يتم حســـم المعارك الوطنية الكبرى بموازين القوى التقليدية، أي بموازين من يملك القوة والقدرات العســـكرية الأكبر.. يتم حسمها بسلاح آخر هو الأقوى على الإطلاق.. سلاح الإرادة الوطنية.. إرادة الرفض والصمود والمقاومة.

يصح هذا بالنســـبة إلى كل معـــارك التحرر الوطني التي خاضتها الشـــعوب وعرفها التاريخ. والأمثلة على ذلك كثيرة جدا عبر العصور.

غير أن أكبر معركة في التاريخ حسمتها الإرادة الوطنية كانت معركة العدوان الثلاثي على مصر في عام 1956 والتي يطلقون عليها في الغرب حرب السويس.

هذه المعركة كانـــت فاصلة ليس فقط في تاريخ مصر، وإنما فـــي تاريخ العالم كله. المؤرخون في العالم كله اليوم يتحدثون عن عالم ما قبل السويس وعالم ما بعد السويس.

قبل فترة وبعد كل هذه الســـنوات من العدوان الثلاثي نشرت لأول مرة الوثائق السرية الكاملة للمخططات التي تم وضعها للعدوان الذي شـــاركت فيه بريطانيا وفرنسا والكيان الاسرائيلي. التفاصيل مفزعة وتتضمن جوانب شنيعة تعرف لأول مرة.

من المهم ان نســـجل هنا ما تضمنته هذه الوثائق بالتفصيـــل. هذا مهم ليس للتاريخ وحسب، وإنما لأمر آخر أهم.. هذا تجسيد تاريخي لكيف يمكن للإرادة الوطنية ان تهزم أعتى القوى وتفشل أشنع المخططات.

كل المخططات الســـرية التي وضعوها للعدوان وشـــرعوا في تنفيذها أسقطها جمال عبدالناصر بكلمة واحدة.

كل هذه المخططات فشـــلت، ولم تفشل فقط، بل سقطت الإمبراطورية البريطانية وعهد الاستعمار الفرنسي بفضل مدينة مصرية واحدة.

هذه ملحمة كبرى لا بد أن تروى.

لمـــاذا كتبـــت «الأوبزرفـــر» أن بورســـعيد تتحـــول إلى دولـــة عظمـــى؟

من هي «الهاتاشاما» التي قادت أكبر حرب نفسية وطنية؟

دولنـــا العربية أحوج ما تكـــون اليوم إلى اســـتنهاض الروح الوطنية

بقلم:
السيد زهره

■ ■ ■

الخطة السرية الكبرى

تطـــورات ووقائع العـــدوان الثلاثي على مصر باتت معروفة بالتفصيل وموثقة في كتب ودراســـات ويســـتعيدها المؤرخون والكتاب باستمرار.

لكن الجديد هنا أنه ولأول مرة وبعد مرور كل هذه الســـنوات على العدوان، أن التفاصيل الســـرية الكاملة لمخطط العدوان تم الكشف عنها.

في ديســـمبر عام 2023 نشر موقع الـ«بي بي ســـي» ولأول مـــرة نص وثائق ســـرية بريطانية عـــن الخطط الكاملة للعدوان، والتي ظلت سرية حتى الآن.

قراءة هذه الوثائق تشـــير إلى اننا لم نكن نعرف تفاصيل هـــذه المخططات منذ العدوان وحتى اليوم، وإلى أن هـــذه الخطط وما كانت تســـعى إلى تحقيقه في مصر أشنع بكثير جدا مما كنا نتصور.

سنعرض لما جاء بهذه الوثائق بالتفصيل نظرا لأهميتها البالغة.

تكشـــف وثائق ســـرية لـــوزارة الدفاع البريطانية أن التخطيط للهجوم على مصر قد بدأ فعليا بعد ثلاثة أيام فقط من قرار عبدالناصر تأميم قناة الســـويس في 26 يوليو عام 1956. ووفق تقرير بالغ السرية، لم يُطلع عليه سوى أجهـــزة المخابرات، فقد بحثـــت لجنة الأركان المشتركة البريطانية، في اجتماع عقد يوم 30 يوليو، الاســـتعداد للحرب، بحضور الجنرال سير تشارلز كيتلي، قائد قوات التحالف الثلاثي ضد مصر.

وجاء فـــي تقرير للجنة بعنـــوان «تقرير هيئة التخطيط المشـــتركة بشأن إتاحة قوات للعمل ضد مصـــر»، إن وزارتي الحرب والجو «تدرسان ســـبل إيجاد الرجال اللازمين لشن عملية للاســـتيلاء على قناة السويس من دون حاجة إلى تشريع خاص».

وفضلا عـــن مناقشـــة خطـــط العملية العسكرية، ناقش رؤساء الأركان التالي:

★ احتمال أن يـــؤدي القصف الجوي إلى اضطرابات في إمدادات النفط

★ إمكانية عمل أي شيء في المدى القصير لوقف إمدادات مياه النيل بشكل مؤثر.

★ وضع خطط لشن حرب نفسية بعد أول أيام العملية.

بعد ثلاثة أيام أخـــرى، اختير «الفارس» اسما رمزيا للهجوم، كما تقرر «شن حملة لجذب تعاطف العالم المتحضر» للعمل العسكري على مصر.

وفي أواســـط شـــهر أكتوبر، أقرت لجنة رؤســـاء الأركان البريطانيـــة، بعـــد موافقة الجيش الفرنسي، خطة تنفيذ عملية «الفارس» العسكرية.

وفي تقريرها إلى رئاســـة الـــوزراء، قالت اللجنـــة إن الخطة «تقوم علـــى مفهوم هجوم جوي وحرب نفسية.

وتقرر تنفيذ الخطة على ثلاث مراحل:

الأولى: القضـــاء علـــى الســـلاح الجوي المصري

الثانية: هجوم جوي مرفق بحملة نفسية موجهـــة توجيها يتســـم بأقصـــى درجة من الحرص. وســـيوجه الهجوم الجوي إلى أهداف مختارة بغرض إحـــداث اضطراب متزايد غير مسبوق على الإطلاق للاقتصاد، والمعنويات، والإدارة والقـــوات المســـلحة المصرية، وفي النهاية، تدمير إرادة المقاومة لدى المصريين.

الثالثة: إنزال في بورسعيد يتبعه احتلال منطقة القناة، والاســـتيلاء على الإســـماعيلية وأبو صويـــر والتقدم إلى التـــل الكبير وفايد والسويس.

وبسبب التعويل عليها في تحقيق الأهداف المعلنة وغير المعلنة للهجوم، أعطيت المرحلة الثانية اهتماما أكبر.

وحدد القادة العســـكريون لهذه المرحلة قائمة من الأهداف الحيوية:

أولا: منشـــآت الجيش والقـــوات الجوية والبحرية في ضواحي القاهرة، والإســـكندرية وبورسعيد والســـويس، بهدف التدمير المادي لهياكلهـــم التنظيميـــة وأنظمـــة الاتصالات، والقواعد، وإظهار عدم كفاءة الجيش والقوات الجوية والبحرية للشعب المصري.

ثانيا: محطات ضخ النفط، وخطوط أنابيب النفط، وصهاريج التخزين فـــي المدن الأربع الكبرى.

ثالثا: المواصلات، السكك الحديدية وتشمل الطرق، الجســـور ومناطق عنـــق الزجاجة، شـــاحنات نقل النفط بريا، ومنشآت حكومية. ورصدت هذه الأهداف في 17 منطقة ومحافظة وحيا ومدينة في أنحاء مصر، بما فيها القاهرة.

رابعا: محطات الطاقة الكهربائية.

خامســـا: الأهـــداف التكتيكيـــة للجيش المصري في ســـيناء، وفي الأماكـــن المماثلة التي يتركز فيها ويسهل مهاجمتها. على سبيل المثـــال، المعابر فوق القنـــاة، ومناطق تركز المدرعات والســـيارات، والمواقـــع الدفاعية والقوات حول بور سعيد.

■ ■ ■

الحرب النفسية

تم تعيين البريجيدير فيرجسون مسؤولا عن إدارة الحرب النفســـية. كما عُين موظفون ذوو خبرة من وزارة الخارجية للعمل معه.

كان الهدف الأول هو إســـكات صوت إذاعة القاهـــرة، على أن «تحل محلها إذاعة الشـــرق الأدنى البريطانية». وشـــملت خطة الإسكات ضرب محطات الإرســـال الأربع في أبو زعبل إضافـــة إلى المحطتين الأقل قـــوة في القاهرة والإســـكندرية. ووفقـــا لخطة الحـــرب، فإن الغرض هـــو «قطع الاتصـــالات الإذاعية بين الحكومة المصرية والعالم الخارجي ومنطقة الدلتا». وأشـــارت إلى أنه «في غياب الإعلانات الحكومية المباشـــرة، ســـوف يُسمح بانتشار الشائعات، وتكون دعايتنا فاعلة».

وشـــدد المخططون على أنـــه «إذا كانت المعنويات المصرية أعلى من المقدر، ســـوف يُطلب مزيـــد من الحرية فـــي العمل لمهاجمة أهداف سيكون لها تأثير مباشر بقدر أكبر على عموم الأمة». و«استخدام كل الموارد المتاحة» في الحرب الدعائية والنفسية.

ذهـــب التخطيط للحرب إلى حد دراســـة التدابيـــر اللازمة لإدارة المناطق التي ســـوف تُحتـــل مـــن مصـــر. وناقش المستشـــارون القانونيون لـــوزارة الخارجيـــة البريطانية إصدار «مراسيم لفرض حكم عسكري» في تلك المناطق.

ووفق هذه المراســـيم، تقرر «إعطاء أفراد من القوات وأشـــخاص آخريـــن يُكلفهم القائد العسكري صلاحيات القبض والتفتيش واعتقال أي أشخاص يثبت ارتكابهم أو يشتبه في أنهم على وشـــك ارتكابهم مخالفات منصوص عليها في الإعلانات والمراسيم واللوائح اللاحقة».

وتضمنت المراســـيم أيضا «إنشاء محاكم عســـكرية لمحاكمـــة ومعاقبة أي أشـــخاص ســـوف يرتكبون مخالفات منصوص عليها في هذا الإعلان أو الإعلانات والمراســـيم واللوائح اللاحقة».

وناقشـــت لجنـــة مصر فـــي الخارجية، بنـــاء على طلب ســـير نورمان بـــروك، وزير شؤون مجلس الوزراء «الاعتبارات السياسية المرتبطـــة بتخطيطنـــا العســـكري وخاصة باحتلالنا لمصر».

ونصحت وزارة الدفاع والوزارات الأخرى المعنية بالترويج «بأبســـط العبارات» لهدف التحالف العســـكري وهو «الحفاظ على مبادئ معاهدة 1888، وضمان السيطرة الدولية على القناة».

أما الهدف غير المعلن حينها فهو «الإطاحة بنظام ناصر».

وتوقع رالف ماري، المسؤول القانوني في الســـفارة البريطانية في القاهرة بعد اطلاعه على نتائج اجتماع لجنة مصر، أن يكون إسقاط النظام سهلا في حالة هزيمة الجيش المصري.

وقـــال: «هدفنـــا العرضـــي المتمثل في الإطاحة بنظام ناصر يمكـــن، تقريبا بالتأكيد، تحقيقه بإلحاق هزيمة كاملة بالقوات المسلحة المصرية، وتحقيق استســـلام. ولتحقيق هذا الهدف ســـتكون العمليات، بلا شك، في الدلتا مطلوبة».

■ ■ ■

خطة الإبادة

إذا قرأنا هذه المخططات الســـرية بعناية فســـنجد أن هدف العدوان كما خططوا له على هـــذا النحو لم يكن مجرد الســـيطرة على قناة السويس، ولا مجرد احتلال مصر وإسقاط نظام عبدالناصر. كان مخطط إبادة شـــاملة لمصر بكل معنـــى الكلمة.. إبادة كل قدرات مصر وكل منشـــآتها الحيوية من كهرباء وماء ومنشآت حكومية في كل محافظات مصر، وتدمير السكك الحديدية وكل شيء في مصر وحتى التفكير في كيفية قطع مياه النيل.

المعتدون اعتبروا أن الطريق الأساســـي لتنفيذ هـــذا المخطط ونجاحه هـــو ما أطلقوا عليه «تدمير إرادة المقاومة لدى المصريين،». اعتبروا أنه إذا انهـــارت إرادة المقاومة أصبح الطريـــق مفتوحا أمام تنفيـــذ المخطط. ولهذا أعطوا اهمية كبرى لخطط الحرب النفسية.

كان هذا تقديرا صحيحا. أي كان صحيحا أنه لو تم تدمير إرادة المقاومة المصرية فسوف يصبح الطريـــق مفتوحا بالفعـــل أمام نجاح المخطط.

لكن ما لم يحســـبوا حســـابه أن تحقيق هذا الهدف في مصر أمر مســـتحيل بل وهم من الأوهام، ولم يقدروا قدرة الشعب المصري على المقاومة.

■ ■ ■

سنقاتل

بنـــاء على هذه الخطة الســـرية تم شـــن العدوان الثلاثي على مصر. بدأ بعدوان إسرائيل على ســـيناء ثم انضمت بريطانيا وفرنسا إلى العدوان.

بالطبع حين شـــنوا العدوان تصوروا أن مخططاتهم سوف تمضي كما رسموها بالضبط.

في التاســـع والعشـــرين من أكتوبر عام 1956، هاجمت إسرائيل أولاً بعملية إنزال جوّي على «ممر متلا» في وســـط «ســـيناء»، لتنفيذ الجزء الأول من المخطط الـــذي توافقت عليه الدول الثلاث. تصدت القوات المصرية للهجوم، ودارت اشتباكات عنيفة قبل أن تُصْدر إنجلترا وفرنسا إنذاراً للطرفين بوقف القتال على الفور، ومطالبتهما بالانسحاب إلى مسافة عشرة كيلو مترات بعيداً عن «قناة السويس»، وإلا ستتدخل قواتهما لتنفيذ ذلك بالقوة.

في اليوم التالي مباشـــرة، قامت بريطانيا وفرنســـا بالعدوان على مصر بغارات خاطفة ومتلاحقة، على «القاهرة»، و«الإســـكندرية»، ومدن القناة

بدأ العدوان إذن وفق المخططات الســـرية الموضوعة.

لكن الذي حدث أن جمال عبدالناصر بكلمة واحدة أسقط كل هذه المخططات منذ البداية.

في يـــوم 2 نوفمبر 1956 وأمام حشـــود المصلين بالجامع الأزهر بعد صلاة الجمعة في ظل العدوان صعـــد الرئيس جمال عبدالناصر وألقى كلمة تاريخية بـــكل معنى الكلمة. قال: «في هـــذه الأيام التـــي نكافح فيهـــا من أجل حريتنا.. حرية شـــعب مصر، ومن أجل شرف الوطـــن، أحب أن أقـــول لكـــم إن مصر كانت دائماً مقبرة للغـــزاة. إن جميع الإمبراطوريات التـــي قامت علـــى مر الزمن انتهت وتلاشـــت حينمـــا اعتدت على مصر، ولكـــن مصر بقيت متماسكة متحدة متكاتفة، انتهى الغزاة.. انتهت الإمبراطوريـــات.. وبقيت مصر، وبقي شـــعب مصر». وقـــال: واليوم ونحـــن نقابل عدوان الظلم والاستعمار الذي يريد أن ينتهك حريتنا وإنسانيتنا وكرامتنا، ونحن نقاوم هذا العدوان نطلب من الله أن يلهمنا الصبر والإيمان، والثقة والعزم، والتصميم على القتال... إن الموت حق على كل فرد منا.. ولكن إذا متنا.. يجب أن نموت بشرف، ويجب أن نموت بكرامة.

وأطلـــق عبدالناصر صيحتـــه التاريخية الكبرى «ســـنقاتل.. ســـنقاتل». وأنهى كلمته بالقول: سيكون شـــعارنا دائماً الله أكبر.. الله يقوينـــا.. والله ينصرنا.. نعتمد على الله وعلى أنفسنا، وسنجاهد، ونكافح ونقاتل، وسننتصر بإذن الله.. والله أكبر.. والله أكبر».

بكلمـــة «ســـنقاتل» وبشـــعار الله أكبـــر أســـقط عبدالناصر كل هذا المخطط الســـري. الذي تحـــول إلى هتاف موحد للشـــعب أثناء المقاومة، أسقط المخطط لأنه بهذه الكلمة فجر عبدالناصر بـــركان الإرادة الوطنية المصرية، إرادة المقاومة.

حشـــود هائلة مـــن المصرييـــن في كل المحافظات تســـابقوا للتطوع والمشاركة في مقاومـــة العدوان، وانفجرت الـــروح الوطنية المصرية فـــي كل مكان. هـــذا بالضبط ما لم يحسب المعتدون حسابه.

كل إرادة المقاومـــة المصرية التي تفجرت تجســـدت في الملحمة التاريخيـــة الكبرى.. ملحمة بورسعيد.

■ ■ ■

ملحمة بورسعيد

تنفيـــذا لخطـــة العـــدوان كانـــت مدينة بورســـعيد هي الهدف الأكبـــر الأول للعدوان. المعتدون ضربوا «بور ســـعيد»، بحراً وجواً، تمهيداً لعمليات الإنزال الجوي بالمظلات. احتل المعتدون بورســـعيد على الرغم من محاولة أبناء المدينة ورجال الجيش منعهم والتصدي لهم.

بمجرد احتـــلال بورســـعيد تفجرت أكبر ملحمة مقاومة شـــعبية في التاريخ المعاصر. تشـــكلت مجموعات من لجان المقاومة، جرى دمجها في لجنة واحدة، سُمِّيت «جبهة المقاومة الشـــعبية المتحدة ببورســـعيد». ثم ظهر ما عُرِف باســـم «الهاتاشاما»، وهي حركة مقاومة منظّمة كانت مهمتها شـــن حرب نفســـية على قوات العدو، وفي نفس الوقت استنهاض روح الصمود والمقاومة لدى أبناء المدينة. الحركة نشـــطت فورا في كتابة وطباعة المنشـــورات التي كان يتم توزيعها على أهالي «بورسعيد»، والتي اشترك في صياغتها مجموعة من شعراء وأدباء المدينة. عمدت منشورات «الهاتاشاما» إلى شن حملة نفسية مضادة على العدو، وحث الأهالي علـــى مقاومة الاحتـــلال، وتحذيرهم من إلقاء الســـلاح، ودعوتهم إلى توسيع دائرة المقاومة وضم كل من يســـتطيعون ضمه من الأقارب والجيران. كما كانت تصدر منشورات بالإنجليزية والفرنســـية موجهـــة الى جنود العدو.

الهاتاشاما اســـتخدمت نفس السلاح الذي راهن عليه الأعداء، ســـلاح الحرب النفســـية ونجحت في تدمير معنويات العدو واستنهاض روح المقاومة.

فصول المقاومة الشـــعبية في بورسعيد تحتاج الى مجلدات لروايتها، وقد تم تسجيلها بالفعل في عشرات الكتب والوثائق.

في ذلك الوقت كتبت صحيفة «الأوبزرفر» البريطانية التي كانت معارضةً للحرب تقول: «إن بورســـعيد قد تحولت إلى قبلة للمتمردين في العالم، فالشباب هناك يصطادون المظليين البريطانيين ببنادق عتيقة، والنساء والرجال حوّلوا شـــوارع المدينة إلى بحـــر من الدماء. وعلى الرغم من أن القوات البريطانية قد قتلت المئات من المصريين، فإن بورسعيد توشك أن تتحـــول إلى دولة عظمى، إذ نجحت في كســـر جيوش بريطانيا وفرنسا معاً.. وبسلاح قديم أيضاً».

وانتجت الـ«بي بي سي» فيلما وثائقيا عن العدوان الثلاثي جاء فيه: «حســـم المصريون المعركة. قاتلوا بســـلاح قديم من شـــارع إلى شارع ضد أقوى جيوش العالم وقتها، وابتكروا تكتيكات عســـكرية جديدة ارتجلوها في ساحة الحرب».

ونشـــرت الصحف البريطانيـــة نقلا عن مصادر في المخابـــرات: «إن أجهزتنا أصيبت بالشلل في كل ما يتعلق بأرض المعركة. ومع تزايد أعداد القتلى، خرجت عدد من المظاهرات في لندن وباريس، ونظّمت عدد من أسر الجنود مظاهرات مطالبة بوقف الحرب، وطالب الأهالي بعودة الجنود «قبل أن يقتلهم المصريون».

■ ■ ■

العدوان انتهى على النحو المعروف تاريخيا. وفي 19 ديســـمبر 1956 أنزل العلم البريطاني من فوق مبنى هيئة قناة الســـويس ببورســـعيد، الذي كانـــت قوات العـــدوان تتخذه مقـــراً للقيادة. وفي 22 ديســـمبر 1956 غادر آخر جنـــدي من القوات البريطانية والفرنسية الأراضي المصرية. وفي 23 ديسمبر 1956 تسلمت الســـلطات المصرية مدينة بورســـعيد، وهو التاريخ الذي اتخذته المدينة عيدًا قوميًا لها «عيد النصر».

كثيـــرون يعتقـــدون أن الســـبب الرئيســـي لهزيمة العدوان هـــو تدخل أمريكا والضغوط التي مارســـتها. والحقيقة أنه قبل هذا، وأهم من هذا، أن العدوان هزم بسبب قوة الإرادة الوطنية المصرية والمقاومة الباســـلة في بورســـعيد. وبالمناســـبة الإرادة كانـــت مصريـــة عربية، فقـــد وقفت الدول العربية بقوة وحسم مع مصر في مواجهة العدوان.

بهزيمة العدوان سقطت حكومة رئيس الوزراء البريطاني أنتوني ايدن، وانتهى عهد الامبراطورية البريطانية وعهد الاستعمار الفرنسي.

نســـتعيد هـــذه الصفحـــة مـــن تاريخنا ليس للذكرى، ولكن لأن دولنا العربية اليوم وما تواجهه من أخطار وتحديات كبرى ليست بحاجة إلى شيء أكثر من حاجتها إلى اســـتعادة هـــذه الروح. روح الإرادة الوطنيـــة العربية.. إرادة الرفض والمقاومة والدفاع عن أوطاننا.